طبيعة النفس العربية

بين المزاج العقلي السامي والمزاج الآري

للاستاذ صادق برسوم مطر
(ليسانسيه في الفلسفة)

— ٢ —

بينما كان « أرنست رينان » يؤلف كتابه في تاريخ اللغات السامية الذي ضمنه نظرية في مقابلة المزاج العقلي السامي بالمزاج العقلي الآري وهي التي بسطناها في المقال السابق ، كان مستشرق آخر في المانيا اسمه « لاسن Lassen » يكتب أيضاً في المقابلة بين المزاج السامي والآري بنفس الروح و بنفس الأسلوب الذي كتب به رينان ، وهذا الاخير يشير الي ذلك في هامش الفصل الاول من كتابه في تاريخ اللغات السامية فيقول: إنه قد كتب هذا الفصل قبل أن يقرأ ما كتبه « لاسن » و إنه بعد ذلك قد دهش كثيراً حين رأى أنه قد توصل الي نتائج تكاد تتفق في مجموعها مع ما كتبه « لاسن » ثم يقول إن لاسن قد رأى وهو مصيب في رأيه أن صفة الشخصية La subjectivité هي الصفة الجوهرية لكل خصائص الساميين وأن صفة الانانية لم تظهر وتبلغ منتهاها عند أي شعب آخر كما بلغت عند الساميين وأن حياة العرب هي سلسلة من الاحقاد والضغائن والأخذ بالثأر .

ومن الذين تأثروا بآراء « رينان » مسيو ليون جوتييه Gauthier أستاذ الفلسفة الاسلامية بمدرسة الآداب العليا بالجزائر . يقول جوتييه في المحاضرة التي افتتح بها دروسه في الفلسفة الاسلامية بالجزائر (وهي مطبوعة في كتيب صغير تحت عنوان La Philosophie Musulmane) ما يأتي : ومبدأ الوحدة الالهية هو أهم خصائص النفس السامية كما نعرفها منذ موسي ومحمد ، بل أليست النفس السامية هي التي اخترعت فكرة الوحدة الالهية ؟ أما الجنس الآري أو الهندي الاوربي فانه لم يسم من تلقاء نفسه عن فكرة تعدد الآلهة .. و بين أولئك الأنبياء الكثيرين الذين دعوا لالٰه واحد وخالق واحد لا نرى واحدا من الجنس الآري فكلهم من اليهود عدا احمد الذي هو من العرب . واذن فكل الانبياء بدون استثناء ينتسبون الى الجنس السامي .

« وفي هذه الظاهرة يمكن ملاحظة تأثير الجو بمعناه الواسع على تقسية الاجناس وتكوين الديانات التي تعتقد بها . فصحراء ، وسامي ، والٰه واحد ، هي ثلاثة الفاظ لاسبيل الى الفصل

بينها — واذا ألقيت نظرة على مصورين جغرافيين للعالم القديم، أولهما يمثل مناطق الصحراوات والسهول باللون الاصفر مثلا، والآخر يمثل باللون الاخضر البلاد الاسلامية. فانك ستدهش حين ترى هذين اللونين المختلفين يكادان ينطبقان تماماً. وفي كل من المصورين سترى أن المنطقة الملونة عبارة عن مستطيل طويل يمتد من المحيط الاطلنطي غربا الى المحيط الهادى شرقاً مخترقاً كل أفريقية الشمالية وبلاد العرب وفارس وغرب الصين. ولكنك ترى أن منطقة اللون الأخضر تتعدى منطقة اللون الاصفر في بعض نقط مثل: تركيا أوربا والهند وغيرها ولكن من المستحسن أن نلاحظ هنا أن في تركيا أوربا لا يزيد المسلمون على ٢٣ في المائة من مجموع السكان، كذلك مسلمو الهند ليسوا إلا أقلية. فالدين الاسلامي يبدو إذن كدين للصحراوات التي نشأ بها »

« فلنتتبع شعباً ساميا آخر هو الشعب اليهودى الذى شتته الامبراطور الروماني (أدريان) وهو الآن منتشر على كل سطح الارض، ولكنه في عصر النبوات كان محصورا في تلك الواحة الطويلة وهي مصر، ثم في وادي الاردن الضيق بين البحر والصحراء — وموسى ويوحنا معمدان والمسيح كانوا ينطلقون إلى الصحراء المجاورة للتحدث مع الاله الواحد الذى يتكلمون باسمه. أليس صواباً إذن أن يقال إن التأمل في الصحراء والتأمل في الصحراء فقط وهي ذات منظر واحد لا نهائي هو أمر موافق لظهور فكرة الوحدة الالهية؟ ثم أليس حقاً أن يقال إن صحراء وإلهاً واحداً لفظان لا ينفصلان؟ »

أما فيما يتعلق بارتباط لفظ سامي بهذين اللفظين فان الصحراء وبعبارة أخرى العالم الاسلامي آهل بالساميين. وقد وجد العرب من السهولة في إخضاع الساميين الى الاسلام بقدر ما لاقوا من الصعوبة والفشل في حمل غير الساميين على اعتناقه، وأكبر شاهد على ذلك هو إخفاقهم في نشر دينهم في أسبانيا وجنوب غرب فرنسا وصقلية وهي بلاد قد خضعت للمسلمين طويلا ومع ذلك كان عليهم أن يتركوها عاجلا أو آجلا الى الصحراء. وبالعكس من ناحية السودان نرى أن الاسلام يجد له دائما أتباعا من السكان الزنوج القريبين من الصحراء. ولكن تقدمه يقف فجأة عند حدود الغابات الاستوائية. وإذن فصحراء وسامي وإله واحد هي ثلاثة ألفاظ لا تنفصل. وأخيرا ختم جوتييه رأيه هذا بقوله: هذه النظرية تبدو جذابة بالرغم من أنها لا تفسر كل الوقائع.

هذا هو ملخص آراء دعاة الساميه والآرية المشهورين وقد كان لهذه النظرية أو قل هذه الدعوى مؤيدون وأنصار كثيرون في أوربا إبان القرن التاسع عشر، أما الآن فقد أصبحت نظرية عتيقة فاسدة ودعوى باطلة واهية.

فهذه النظرية أول الأمر ليست لها أية قيمة علمية لانها ليست الا فرضاً من الفروض ، ومن الفروض التي لا سبيل الي تحقيقها بالتجربة و بذلك تخرج عن دائرة العلم — ذلك أنه من المتفق عليه عند المناطقة وفلاسفة العلوم أن الفرض هو فكرة يلجأ اليها العالم لتفسير ظواهر أو أشياء . وهذه الفكرة أو هذا الفرض اذا استطاع العالم أن يحققه بالتجربة أصبح قانوناً علمياً وأصبح من حقه أن يضيفه الى قضايا العلم ، و بالعكس فالفرض اذا لم يستطع تحقيقه تجريبياً أو كان بطبيعته غير قابل للتحقيق التجربي فهو ليس علمياً على الاطلاق . وفرض الساميه والآرية هو من هذا الضرب الاخير فهو ليس علمياً . وكل ما نستطيع أن نصفه به فهو أنه محاولة للتفسير ، فهل كانت هذه المحاولة موفقة ؟

لقد أشرنا فى المقال السابق الي اهتمام الاوربيين فى القرن التاسع عشر بالدراسات الشرقية بوجه عام والدراسات العربية والاسلامية بوجه خاص . وقلنا إنهم لكى يفسروا ما رأوه من الاختلال بين آثار الفكر العربى وآثار الفكر الاوربى قد فرضوا دعوى الساميه والآرية وقارنوا المزاج العقلى السامى بالمزاج العقلى الآرى وقالوا أو قال عميدهم رينان : إن النفس السامية هي أدنى من النفس الآرية ، فهل كانت هذه المقارنة جائزة ؟

يعترف مسيو « ليون جوتييه » فى كتيبه السابق الذكر بأن ما يعرفونه من آثار الفكر العربى لا يزال ضئيلا و يشير الى قلة النصوص المطبوعة وضآلة ما ترجم منها وندرة ما كتب عنها من المؤلفات النقدية وغير النقدية . هذا ما يقوله « ليون جوتييه » فى سنة ١٧٩٩ وهو اعتراف صريح منه بأن ما كانوا يعرفونه من الدراسات العربية والاسلامية فى آخر القرن التاسع عشر كان لا يزال ناقصاً وضئيلا .

وعلى ذلك فان ما كان معروفا من هذه الدراسات فى عهد رينان ولاسن قد كان بالضرورة أشد نقصا وأكثر ضآلة « لان رينان توفى سنة ١٨٩٢ ولاسن سنة ١٨٧٦ » . و إذن فدعاة الساميه والآرية قد بنوا نظريتهم على مقارنة آثار الفكر العربى بآثار الفكر الاوربى فى الوقت الذى كانت فيه الدراسات العربية فى أوربا باعتراف أحدهم لاتزال ناقصة وقليلة ، والمقارنة فى هذه الحالة هي فكرة طائشة وسابقة لأوانها لأنها مقارنة شيء معروف لديهم بشيء لا يعلمون منه إلا القليل فهم لم يقارنوا فى الواقع آثار الفكر الاوربى بآثار الفكر العربى بل بما وصل اليه علمهم من آثار الفكر العربى ، ولم يصل علمهم إلا إلى شيء قليل منها . واذن فهذه المقارنة غير جائزة وهي باطلة فتكون النظرية القائمة عليها باطلة بالضرورة .

نعود الآن الى أقوال دعاة هذه النظرية لنتقدها نقدا إجماليا — فأقوال رينان تتلخص فى أن

الساميين هم أصحاب دين وعقائد وأن الدور الذى لعبوه فى التاريخ هو دينى أكثر منه سياسي أو علمي أما الآريون فهم أصحاب علم وفلسفة وأصحاب نظم سياسية . وهو يرجع كل خصائص الساميين الى التوحيد والبساطة، فالتوحيد هو سبب تعصبهم وعدم وجود المساخ الدينى عندهم وهو السبب فى أنه ينقصهم الاحساس بالتنويع ، فالتشريع السامي البحت لم يعرف الا نوعا واحدا من القصاص هو الموت ، والشعر السامى وخاصة الشعر العربى يعوزه الاختلاف والتنوع فموضوعاته محدودة قليلة العدد . أما صفة البساطة فانها تميز الجنس السامى من الوجهة المدنية والسياسية . ويرجان يفسر ميل الساميين الي التوحيد والبساطة بالصحراء ، فالصحراء هى ملهمة الوحدانية ومبعث التوحيد لمنظرها الواحد المتشابه ، ويأتى بعده ليون جوتييه فيؤكد ذلك بقوله إن صحراء وسامى وإله واحد هى ثلاثة ألفاظ لا تنفصل . ولكن اذا كانت سكنى الصحراء هى السبب الذى من أجله نسب رينان الى الساميين تلك الصفات التى ذكرناها فيجب أن لا تنسب اليهم إلا على هذا الاعتبار أى أن هذه الصفات هى صفات أهل الصحراء وهى لا تنطبق على الساميين إلا فى طور واحد من أطوار حياتهم هو طور البداوة . أما اذا كان رينان وأصحابه ومن لف لفه يعتقدون أن هذه الصفات الصحراوية قد لازمت الساميين فى جميع أطوار حياتهم — أقول اذا كانوا يعتقدون ذلك وأكبر ظني أن هذا هو اعتقادهم — فانهم بذلك ينكرون تأثير البيئة وينكرون وقائع التاريخ . ولا ينكر الحقيقة إلا جاهل أو متجاهل ذو غرض .

أما نقد أقوال رينان وأتباعه من جهة أنها تتضمن إنكار أو تجاهل أثر البيئة فى الشعوب فأنا أتركه لأحيل القارىء إلى دائرة المعارف البريطانية فهى تقول « إنه ليس من صواب الرأى ما فعله رينان ولاسن باضافتهم صفات خاصة الي الجنس السامى هي فى الواقع ناشئة عن عوامل خارجية ، فهى نتيجة البيئة التى عاشوا فيها والظروف التى أحاطت بهم وإنهم لو عاشوا فى بيئة أخرى وفى ظروف أخرى لظهرت لهم صفات جديدة الخ »

أما عن مخالفة أقوالهم للتاريخ والواقع فأنا أكتفى بالاشارة الي حضارة العباسيين والعرب الأندلسيين وما نبغ منهم من العلماء المبرزين في الوقت الذي كانت فيه أوربا في سبات عميق كذلك أشير الي اليهود فمنهم الآن كثير من علماء أوربا وفلاسفتها ورجال السياسة فيها ، ويكفى أن أقول إن منهم برجسون كبير الفلاسفة المحدثين وإينشتين صاحب نظرية النسبية وكبير الرياضيين .

واذن فمن هذا النقد العام يتبين أن هذه النظرية لا أساس لها من الحقيقة ولا سند لها من الواقع . وهناك مجال كبير لنقد أقوال ريتان وأصحابه نقدا تفصيلياً ولكن يضيق المقام عن ذلك وأكتفي هنا بذكر خمسة أبيات من الشعر لحافظ بك ابراهيم يدفع بها حملة ريتان على الشعر العربي وهذه الأبيات من قصيدته في حفلة تكريم واصف غالي باشا بفندق شبرد سنة ١٩١٤ بمناسبة ترجمته بعض قصائد العرب الي الفرنسية قال مخاطباً واصف باشا :

حرت ما كتبوا عنا بقاطعة ... من البراهين فلت قول (ريتان)
أنحى على الأدب الشرقي مفتريا ... عليه ماشاء من زور وبهتان
ظن الحقيقة في الأشعار تنقصنا ... واللفظ والقصد والتصوير في آن
وأننا لم نصل فيها الى مئة ... عدا وذاك لعمي أو لنقصان
ولو رأى ابن جريج في قصائده ... لقال آمنت في سري وإعلاني

النظرية اذن واهية وأكبر ظني أنها نتيجة عصبية وهوى . فريتان وإن كان معروفا عنه أنه ليس متعصبا دينيا ، إلا أني لا أستطيع تبرئته من التعصب الجنسي . فتعصب الاجناس والالوان كان ولا يزال شديدا . ألا ترى اليونان القدماء في عهد حضارتهم كيف كانوا يطلقون على غيرهم لفظة برابرة وهي أقوى ما في لغتهم من الفاظ الدلالة على التحقير ؟ وكيف أنه لم يشذ عنهم في ذلك حتى معلمنا الاول أرسطوطاليس ؟ ثم ألا ترى الرومان وقد ورثوا حضارة اليونان كيف سلكوا سبيلهم واستعملوا لفظهم ؟ ثم ألا ترى العرب كيف كانوا يقولون: عرب وعجم ؟ فعربي ترادف عندهم الشرف والنبالة ، وعجمي ترادف الذلة والضعة . وأخيرا ألا ترى الامريكيين — حتى في القرن العشرين — يقولون أبيض وأسود ؟ وهل فعل ريتان وأصحابه غير هذا ؟ . فسامي وآري هي شرقي وغربي . هذه الدعوى التي عبر عنها « كبلنج » الشاعر الانجليزي بقوله « الشرق شرق والغرب غرب والضدان لا يجتمعان » — تلك الدعوى التي تعبر عن شعور الكثرة المطلقة من الاوربيين .

فنظرية السامية والآرية قد لا تكون إلا دعوى الشرق والغرب تحت ستار البحث العلمي ولكنه ستار شفاف يشف عما تحته « فكيف يدفع الشرق تهمة الغرب ؟ » لقد تكلم لنا في هذا الموضوع وتحت هذا العنوان صديقي الاستاذ السيد محمد الملكي الناصري المراكشي في مقاله الشيق بالعدد الماضي وأكتفي الآن بأن أقول جملة واحدة وهي أن ندفع تهمة الغرب بأعمالنا ، قالي العمل لا

صادق رسوم مطر